

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾
لَا يُفْتَنُونَ: لا يمتحنون بالمشاق والشدائد ليميز المخلص من المنافق.

إن كون المرء مؤمناً ومسلماً لا يتحقق ولا يُعتبر بالنظر إلى العمل الذي يمارسه في الأحوال المعتادة، بل على أساس العمل الذي يمارسه المرء في الأحوال غير المعتادة .. وهذه الأحوال غير المعتادة تتمثل في مواقف غير عادية؛ ينكشف عندها ما إذا كان المرء حقاً كما يدعي بعمله الظاهري، أو هو ليس كذلك .. وإنما المؤمن المسلم المعتبر عند الله هو الذي يقيم الدليل على تمسكه بالإيمان والإسلام في غمار الأحوال غير المعتادة .

واجتياز المحنة أو الامتحان الإلهي بنجاح يعني، بعبارة أخرى، الوفاء بمقتضيات الإيمان والإسلام على مستوى التضحية .. أي أن تبادر إلى التصديق بالحق، حتى لو تناوله عامة الناس بالتكذيب .. وأن توقن به حين يكون الناس من حولك مرتابين في أمره .. وأن تبقى مؤمناً ساعة يطالبك الإيمان بأن تدوس أنانيتك .. وأن تبذل بسخاء ساعة تدعو الظروف إلى الإمساك وعدم الإنفاق .. وأن تظل صامداً عندما تتزلزل الأقدام .. وأن تسلم نفسك دون تحفظ، إذ تميل النفوس إلى التهرب طلباً للنجاة، وبحثاً عن السلامة .. وأن تدعن وتنقاد حين تكون فرص العناد والطغيان متاحة .. وأن تتقدم لمناصرة الحق حيث تعني مناصرته الحرمان من كل شيء .

ففي مواقف غير عادية كهذه تبرز خبايا القلوب، وتتجلى كوامن الصدور للعيان ..

وساعتئذ لا يبقى لأحد مجال للفرار والدوران لكي يتظاهر ، عن طريق ترديد الألفاظ المفترضة ، وإطلاق الشعارات المدوية الجوفاء ، بما هو ليس في حقيقة الأمر !

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٣) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤) أَنْ يَسْبِقُونَا: أَنْ يَعْجِزُونَا وَيَفْتُونَا.

أَجَلَ اللَّهِ : الوقت المعين للبعث والجزاء

الدخول في الإيمان يكون في أغلب الحالات ، مرادفاً للسير في الاتجاه المضاد للعصر .. إنه عبادة الله في بيئة تسودها عبادة الأسلاف والأكابر .. وهو وضع المبدأ في المقام الأول والأسمى حيث يُوضع الهدى في المقام الأسمى .. وهو طموح نحو العيش لأجل منفعة الآخرة ، في مناخ تُكرس فيه الحياة لمنفعة الدنيا .

وإن حياة كهذه تتطلب مجاهدةً عنيفةً مستمرةً .. وإنه لا يوفق للاستمرار والصبر على تكاليف هذه المجاهدة إلا الذين أيقنوا بالله أتم الإيقان ، والذين جعلوا من إتمام الله الموعد وحده مركزاً لآمالهم وطموحاتهم !

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٦) ﴿

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ: أمرناه.

حُسْنًا: برأبهما وعطفًا عليهما.

إن أعظم المخلوقين حقاً على الإنسان والداه .. ولكن كما أن لكل شيء حداً يقف عنده ، كذلك فإن حقوق الوالدين هي الأخرى لها حد لا تتعداه .. وذلك ما عبر عنه الرسول - ﷺ - بقوله : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " (رواه أحمد والحاكم) .

وعلى هذا لا بد من القيام بحقوق الوالدين ، ما دامت لا تتعارض مع حقوق الله ، وأما إذا تعارضت طاعة الوالدين مع طاعة الله ، فإن عدم الطاعة لهما عندئذٍ تصير واجبةً تماماً كما تجب طاعتهما في الأحوال المعتادة .

ويلاحظ أن المقصود بحقوق الوالدين في الإسلام هو خدمة الوالدين وليس عبادتهما !

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ؕ أَوَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

فِتْنَةُ النَّاسِ: ما يصيبه من أذاهم وعذابهم.

إن شخصاً يدعي الإيمان .. والشأن أنه إذا رأى في الانضمام إلى صف المؤمنين بعض الأرباح المادية ، بالغ في إظهار إيمانه وحماسته .. وأما إذا كان الانضمام إلى المؤمنين ينطوي على بعض المخاطر أو يسبب له بعض الخسائر الدنيوية ، فلا يلبث أن يرجع القهقري .. إن شخصاً كهذا يطلق عليه القرآن مصطلح المنافق .. والمنافقون قوم كانوا مؤمنين في ظاهر أمرهم ، ولكنهم أبوا عن دفع ثمن إيمانهم .. وبالتالي فشلوا حيث كان المفروض أن يبرهنوا على النجاح !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

خطاياكم: أوزاركم.

أَثْقَاهُمْ: خطاياهم الفادحة.

يَفْتَرُونَ: يخلقونه من الأباطيل والأكاذيب.

الافتراء هو أن يقول المرء شيئاً من تلقاء نفسه ، وينسبه إلى الله سبحانه وتعالى .. ويندرج تحته كل ألوان البِدْع المستحدثة والتأويلات الفاسدة .. ومن صور هذا الافتراء أن يقول قادة الكفر والضلال لمن دونهم من الجماهير أن الزموا طريقنا ، وترسموا خطانا ، وسنأخذ تبعة ذلك على عواتقنا فيما لو سُئِلْتُمْ عنه عند الله !.

ولما كان الله - عز وجل - لم يمنح أحداً حقاً من هذا النوع ، فإن القول بذلك ضرب من الافتراء واختلاق الكذب على الله !!

إن المرء كثيراً ما يقول أقوالاً لا يحسب لها أي حساب ، وهي من الخطورة بحيث لو أنه رأى وخيم عاقبتها ، لما نطق منها بحرفٍ أبداً .. ومن ثم حين يشاهد هؤلاء المتقولون أهوال القيامة ، فيسيكون حالهم هناك مختلفاً كل الاختلاف عن حالهم في دنيا اليوم !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

عاش نوح - عليه السلام - يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً .. وقد كان - عليه السلام - قبل نبوته أيضاً رجلاً صالحاً عاملاً بشريعة آدم - عليه السلام - .. ثم نهض بعدما بُنِيَ داعياً إلى الله يواصل الليل بالنهار في إنذار قومه .. ولكن بالرغم من جهوده المخلصة التي دامت مئات السنين ، لم يؤمنوا بدعوته .. فما لبثوا أن أُغرقوا جميعاً - ما عدا ثلثة مؤمنة صالحة قليلة العدد - بطوفانٍ عظيم .

وفي سلسلة الجبال الواقعة شرقي الأناضول على حدود تركيا وروسيا ، قمة شاهقة تعرف بأرارات أو أراراط (Ararat) ، يقدر ارتفاعها بما يزيد عن خمسة آلاف متر .. وقد أخبر الطيارون من فوق هذه الجبال أنهم رأوا على قمة أراراط المغطاة بالثلوج شيئاً أشبه بسفينة .. ومن هنا بُدلت ولا تزال محاولات شتى للوصول إلى تلك السفينة .. ويعتقد العلماء أنها الشيء الذي ورد ذكره في القصص الدينية باسم "سفينة نوح" .

ولو كان هذا الخبر صحيحاً ، فمعناه أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ سفينة نوح من الضياع حتى هذا اليوم ، لكي تكون للناس علامة ناطقة بأن النجاة من طوفان الله تتطلب سفينة النبي ، وأنه ليس ثمة من شيء آخر البتة من شأنه أن ينقذ المرء من طوفان الله !

﴿ وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦٠ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٦١ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينِ ۚ ١٦٢ ﴾

وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا: تكذبون: أو تحتون كذبا.

كل ما يتخذه المرء من دون الله الواحد الأحد مركزاً لأسمى عواطفه ، لا يعدو كونه ضرباً من الكذب والبهتان .. فإنه يفترض الأوصاف الإلهية في غير الله .. إذ لا يمكن للمرء أن يتوجه إلى غير الله بالعبادة ، إلا بعد أن يفترض فيه تلك الخصوصيات العليا التي ينفرد بها الله وحده بلا ندٍ ولا شريك !

وقد كان الإنسان في عصر الشرك القديم يفترض وجود هذه الصفات الإلهية في الأصنام والتماثيل .. وأما إنسان اليوم فهو الآخر يمارس الشيء نفسه ، اللهم إلا أن أسماء الأصنام لدى الإنسان الحديث تختلف عن أسمائها لدى المشركين القدماء .. وكل ما يفرق بين القديم والحديث هو أن الإنسان القديم إذا كان يجني ثمرات الأرض على أنها نعمة أحد الآلهة المزعومة ، فإن إنسان اليوم يعبر عن ذلك بهذه الألفاظ : إن ثورتنا الخضراء (النباتية) إنما هي نتاج لتقدم علومنا الزراعية !!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ: تردون وترجعون لا إلى غيره.

بِمُعْجِزِينَ: فائتين من عذابه بالهرب.

الإنسان لم يكن موجوداً أولاً ، ثم وُجد بعد .. إذن ، فالخلق الذي صار ممكناً مرة واحدة ، لم لا يكون ممكناً مرة أخرى ؟ وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي في هذا

المقام تعليقاً موجزاً مفيداً يقول : "إنكم ترون البداية كيف تحصل ، ففي ضوءها يمكنكم أن تفهموا عملية الإعادة كيف تكون" !!

إن كل امرئ موجودٍ مثال في ذاته على الخلق الأول .. ولو أراد المرء مزيداً من الأمثلة، فله أن يحل بصره في أرجاء كون الله الفسيح ويتأمل في ظواهره .. وإنه إذ يفعل ذلك فسيجد أن الكون بأكمله نموذج حي لهذا الواقع ذاته.. وإنما وضع الله هذه النماذج الناطقة في كونه لكي يفهم الإنسان منها حقيقة الخلق الثاني ، ويقبل بالتالي على العمل الذي ينفعه في مرحلة الحياة القادمة !

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٩) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٠﴾ * فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٢﴾ *

مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ: للتواد والتواصل بينكم لاجتماعكم على عبادتها.

وَمَاْوَاكُمُ النَّارُ: منزلكم الذي تأوون إليه النار.

الشيء الذي يتخذ شكل العرف أو العادة القومية في مجتمع ما ، لا يلبث طويلاً حتى يصير حاجة كل فردٍ من أفرادهِ .. فعلى أساسٍ منه تقوم علاقاتهم المتبادلة .. وبه ترتبط مصالحهم الحياتية على اختلاف ألوانها .. وعلى حسب قيام الفرد بمقتضاه أو

نبذه إياه لتحديد قيمته أو يسقط اعتباره بين الناس .. ولقد كان الشرك في قديم الزمان تحول إلى عادة قومية كهذه .. وقد أفهم سيدنا إبراهيم أهل العراق بأن عبادة الأصنام التي أنتم جامدون عليها ، لا تعدو كونها عادة شعبية وليست بأي صدق واقعي .. ومع انتهاء حياتكم الراهنة ستنتهي كل أهميتها تلقائياً .. غير أنه لم يقف إلى جانبه أحد سوى ابن أخيه لوط - عليها السلام - وذهب القوم في معاداته إلى حد أنهم ألقوه في النار .. ولكن الله تعالى أنقذه منها سالماً .. ولم يستحق إبراهيم بذلك إنعام الآخرة الأعلى وحده، بل مُنح من عند الله ذريةً صالحةً استمرت فيها سلسلة النبوة لمدة أربعة آلاف سنة .. حيث كان ولده إسحاق نبياً .. ثم كان حفيده يعقوب هو الآخر نبياً .. ومنذئذ لم يُبعث نبي من أنبياء الله إلى سيدنا المسيح إلا وهو ينتمي إلى أسرة يعقوب - عليه السلام - ، ومن أولاد إبراهيم أيضاً كان مديان (مدين) الذي وُلد في نسله شعيب - عليه السلام - كما كان ولده إسماعيل بدوره نبياً .. ومن ذريته بُعث خاتم النبيين محمد - ﷺ - الذي تبقى نبوته مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتاريخ إبراهيم هذا كما ينطوي على عظامٍ وعبرٍ لعبدة الباطل ، يتضمن كذلك إشعاع النور الساطع للذين يقيمون أنفسهم على أساس الحق صامدين في وجه أعاصير الظلم والقهر والاضطهاد !

﴿ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢١﴾ ﴿ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ : بمقارفة المعاصي والقبائح .

نَادِيكُمْ: مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

هاجر لوط من مدينة بابل إلى بلاد الأردن .. حيث أعطاه الله النبوة ، وكلفه بإصلاح قومه .. وقد كانت مساكن قومه بمنطقة سدوم قرب البحر الميت ، وكان هؤلاء مصابين بعادة اللواط غير الفطرية .. كما تفشت بينهم - إلى جانب ذلك - ردائل خلقية واجتماعية أخرى .. غير أنهم لم يقبلوا الإصلاح ، وظلوا غارقين في شهواتهم .. وقولهم ﴿ أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ كان في الأصل موجهاً إلى لوط دون الله .. فقد ظنوا لوطاً من الحفارة بحيث كانوا يستبعدون أن يتعرضوا لبطش الله في حالة ما إذا لم يؤمنوا به .. ومن ثم قالوا على وجه التهكم والسخرية : أن اتينا بعذاب الله إن كنت من الصادقين حقاً !

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ ﴾ قَالَ إِبْرَءِيمُ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْدَى كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

الغابرين: من الباقيين في العذاب كأمثالها.

سَيِّئِهِمْ: اعتراه الغم بمجيئهم خوفاً عليهم.

وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم.

رَجْزًا: عذاباً شديداً.

دُمرت مناطق قوم لوط (سدوم وعمورة) عن طريق زلزالٍ رهيبٍ جعل عاليها سافلها.. وإن الوادي الخصب الذي كانوا قاطنين فيه منذ أربعة آلاف سنةٍ، تمتد فيه الآن مياه البحر الميت الكثيفة .

وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم فإن حادث التدمير هذا، إنما وقع بواسطة ملائكة الله .. ولكن علماء الجيولوجيا والآثار القديمة يقولون : إن هذه المنطقة عندما برزت فيها جبال نتيجة العملية الجيولوجية (ظاهرة التعرج) ، حدث إلى جانب ذلك أن تولد في بعض أجزائها أخدود أو منحدر ، ثم لم يلبث الجزء الجنوبي من هذا المنحدر بعدئذ أن امتلأ بمياه البحر .. وهكذا أصبحت تلك البقعة اليابسة من الأرض تحت الماء التي تعرف اليوم بصفة البحر الميت الجنوبية الأقل انخفاضاً .

إن الشيء الذي يراه القرآن آيةً إلهيةً ، إذا به يتحول من خلال الرؤية غير القرآنية ، إلى حادثةٍ طبيعيةٍ محضة !

ويعتقد الخبراء أن أطلال هذه المدينة الخربة لا تزال توجد مطمورة تحت مياه البحر حتى هذا اليوم .. ولا شك أن في هذا موطن عبرةٍ عظيمةٍ .. غير أنها عبرة لأولئك وحدهم الذين يستعملون عقولهم في محاولة اكتشاف الأشياء والوقوف على دقائق الأمور!

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٢٥﴾

وَلَا تَعْتَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة بسبب الصيحة.

جَائِمِينَ: هامدين مبتلين لا حراك لهم.

أرسل شعيب - عليه السلام - إلى قوم كانوا أهل تجارة .. وقد اشتد حرصهم على اقتناء المال لدرجة أنهم أخذوا في كسبه بأساليب الغش والخداع .. وهذا كان إفسادهم في الأرض .. لئن كانت التجارة المشروعة أسلوباً لكسب المعاش ينطوي على الإصلاح، فإن الغش والابتزاز والسلب والنهب أسلوب لكسب المعاش يؤدي إلى الفساد!

وقال شعيب لقومه: لا تغفلوا عن الآخرة سعياً وراء الدنيا .. ولتمارسوا أعمالكم الدنيوية بطريقة يمكنكم أن ترجوا بها حسن العاقبة في الآخرة .. ولكن القوم، رغم كل جهود نبهم، لم يقوموا بإصلاح شأنهم، بل أنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار .. ومازالوا يفعلون الشرور ولا يترددون .. إلى أن يأذن الله بهلاكهم، وفق سنته الجارية .. فتحولت بيوتهم، التي ظنوها دار حياة لهم، تحولت إلى مقابر لهم، إذ أخذتهم الرجفة (وهي الزلزال الشديد)، فصاروا كأن لم يغنوا فيها!

﴿وَعَادًا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ^{١٤} وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ^{١٥}﴾
وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ: عقلاء متمكنين من التدبر.

ما لبث قوم عاد وثمود بدورهم طويلاً حتى حاق بهم عذاب الله. لقد كان هؤلاء أذكىاء فيما يتعلق بشئون الدنيا، غير أنهم كانوا غايةً في الحمق والغباء فيما يتعلق بشأن الآخرة.. ففيما اكتشفوا سر بناء البيوت والقصور من الجبال والصخور، لم يتعاموا سر بناء الحياة والسعادة من نبي الله .. وإنما كان السبب في ذاته ما أطلق عليه القرآن "تزوين الأعمال"، إذ غرهم الشيطان قائلاً بأن بناء الدنيا هو البناء

كله .. وإذا تمكستم من بناء الدنيا ، لم تعد هناك أية مشكلة تكدر صفو حياتكم أو تهدد مصيركم . غير أن هذا الغرور ما أغنى عنهم شيئاً ، ولا هو مُغْنٍ عن أحدٍ فيما يأتي شيئاً ! كانت مساكن عاد في المناطق الواقعة بجنوبي الجزيرة العربية التي تعرف اليوم باليمن والأحقاف وحضر موت .. وأما الجزء الشمالي من الحجاز ، بدءاً من رابغ حتى العقبة ، ومروراً بالمدينة وخيبر ، وانتهاءً بتياء وتبوك ، فهو المنطقة التي كان يسكنها ثمود في قديم الزمان !

﴿ وَقَرُّوْا وَفِرْعَوْنُ وَهَمَّانُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۚ ﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٠﴾

سَابِقِينَ: فائتين من عذابه تعالى .

حَاصِبًا: ريحا عاصفا ترميهم بالحصباء .

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف .

إن أمم الأنبياء لما كذبتهم وأنكرت دعوتهم ، دُمرت بالعذاب السماوي والأرضي .. فحلّ بقوم لوط عذاب الحاصب (وهو الريح العاصفة تمطر الحصباء أي الحجارة) ، ونزل بقوم عاد ، وثمود ، وأصحاب مدين عذاب الصيحة (الرعد والبرق) ، وأهلك قارون بعذاب الخسف ، بينما أهلك فرعون وهامان وجنودهما بعذاب الغرق .. إلخ .

وكان السبب المشترك الذي استوجب هذا العذاب بمختلف ألوانه ، يكمن في

استكبار الناس ؛ أي عدم قبول دعوة الحق لكونها ستقضي على كبريائهم وسيادتهم!

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَبْثًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضَرْتُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (١٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤)

العنكبوت: حشرة معروفة.

أرشدت الآيات هنا إلى أن الشخص الذي يدرك درس الحقيقة، وهو يشاهد بيت "العنكبوت"، هو العالم حقاً..

ومن هذا يتضح لنا مَنْ هم العلماء الحقيقيون عند الله .. إنهم ليسوا خبراء المباحث الكتابية .. بل هم أولئك الذين يستلهمون الموعظة من الآيات الطبيعية المنبثة في كون الله .. والذين تتحول وقائع الدنيا الصغيرة في أذهانهم إلى دروسٍ وعبرٍ عظيمة .. والإيمان ليس إلا اسماً آخر لهذا العلم ذاته حين يبلغ درجة المعرفة اليقينية القصوى!

﴿ أَتْلُ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (١٥)

قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعني أن كيفية الصلاة هي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر.

ولو أن المرء أضحى في الواقع راكعاً ساجداً لله ، لتولد في نفسه الشعور بالمسئولية والتواضع .. وإن السلوك الذي ينبثق عن الشعور بالمسئولية والتواضع ، إنما يتمثل في

إتيان المرء ما ينبغي لله وحده ، وابتعاده عما لا ينبغي له كل الابتعاد .

والمراد بالذكر هو استحضار الله .. فحين يحصل المرء على معرفة الله الكاملة ، وحين يتوجه بكامل وجوده إلى الله ، فتكون النتيجة أن يتصور الله يستولي عليه ، وتتفجر في داخله ينابيع الذكر الإلهي .. والكلمات اللطيفة السامية التي يناجي بها المرء ربه ، عند بلوغه هذا المستوى الروحاني ، هي الذكر .. وليس من الشك في أن هذا الذكر هو أسمى مراتب العبادة .. والمقصود بتلاوة الوحي هنا هو تبليغ الوحي .. أي قراءة آيات القرآن على الناس ، وإخبارهم من خلال ذلك بمرضاة الله .. وعملية الدعوة والتبليغ عملية شاقة تتطلب غاية الصبر والتحمل .. حيث إنها تفرض على الذي ينهض بأعبائها أن يكون ناصحاً لمعارضيه .. وأن يعرض عن أذاهم وإساءاتهم من طرف واحد ، كما يتعين عليه أن يعتبر مخاطبه "مدعوا" ، حتى لو كان هذا المخاطب منافساً عنيداً سافر الخصومة له !!

وكما تنهى الصلاة المؤمن في حياته اليومية عن السوء ، تنهى كذلك الداعي عن سلوك مسلك أو تبني خطوة لا تليق به كداعية .. وإنه لن يكون داعي الله حقاً إلا الشخص الذي أصبح صدره معموراً بذكر الله ، والذي يكون قد صار بكل كيانه خاضعاً لله - سبحانه وتعالى !

﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ^ص وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٢٥٦ ﴾

المنهج الصحيح للداعي ، إذا حاول بعض الناس جره إلى نقاشٍ عقيم لا طائل تحته ، أن يفارقه بسلام .. وأما الذين يستمعون إليه بجديّة ، فعليه أن يبذل جهده في إيضاح

أمر الحق لهم .. وينبغي أيضاً أن يكون الكلام الدعوي كلاماً حكيماً .. ومن مزايا الكلام الحكيم أن يراعى فيه نفسية المدعو مراعاةً تامةً .. إذ أن الداعي يفرض حديثه بأسلوب يجعل المدعو يأنس به لدرجة يعتبره معها حديثاً نابعاً من قلبه هو .. دون أن يعتبره - لفظاً أسلوب العرض - حديث الغير ، فيزداد منه نفوراً وكرهيةً .

إن أسلوب الكلام الدعوي هو أسلوب النصيح والموعظة ، وليس أسلوب الجدل والمناظرة !

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۚ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١١﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتُ يَتَنَتُّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ ۝﴾

الناس نوعان ، نوع يشمل أولئك الذين يتمتعون بعلم الحق سلفاً (أهل الكتاب) ، وآخر يضم أناساً لا يتمتعون بعلم الحق في ظاهر الأمر ، غير أنهم مع ذلك ، يكونون عارفين بالحق على مستوى الفطرة ، فلكل كان أولئك حاملي الكتاب ، فإن هؤلاء حاملو الفطرة .

وإن الناس سيعرفون الحق من فورهم لو كانوا جادين في الواقع .. فإن مجموعة منهم إذا عرفت على مستوى الكتاب السماوي ، عرفه آخرون على مستوى كتاب الفطرة .. وعلى هذا سيبدو الحديث عن الحق لكل كأنها هو حديث قلبه .. بيد أن الناس لا يلبثون في الأعم الأغلب أن يصابوا بمختلف ألوان العقْد النفسية ؛ مما يولد في نفوسهم مزاج الإنكار والجحود ؛ فهم لا يفتؤون ينكرون الصدق ، مهما اجتمعت القرائن الواضحة على ظهوره ، وتضافرت الأدلة والبراهين القاطعة لتأييده !!

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٣﴾ ۝﴾

رداً على أولئك الذين كانوا يقولون : ما بال هذا النبي لم يأت من عند ربه بالآيات كما جاء بها - مثلاً - موسى من قبل ؟! قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، أي أن أمر المعجزات يتعلق بالله وليس بالنبي .

إن دعوة النبي تعتمد أساساً على الدلائل .. والنبي دوماً يعرض دعوته ، وهو يستند إلى قوة الدلائل .. بيد أن الله سبحانه وتعالى قد يعطي ، نظراً لمصالح واعتبارات أخرى ، لبعض الأنبياء آية (معجزة) ، وقد لا يعطيها لبعضهم الآخر .

وإن الإيمان حدث شعوري .. وإنما الإيـان الحقيقي هو الذي يكون قد انبثق في قلب العبد اقتناعاً بدلائل الحق .. والمحـق هو الذي يؤمن بالشيء بعدما فحصه واختبره جيداً في ضوء الدليل ، وأما الذي يثير مناقشات فارغة لا صلة بها بجوهر الموضوع ، فهو المبطل ذاته !.

﴿ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٤﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ ۝﴾

أَجَلٌ مُّسَمًّى : هو يوم القيامة .

بَغْتَةً: فجأة.

يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ: يجللهم ويحيط بهم.

إن أعمال الإنسان هي جنته ، وهي جحيمه .. ولو أُتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية حياة الكافر العنيد الطاغى من حيث نهايتها المعنوية المحتومة ، لوجدنا كأن أعماله السيئة محيطة به من كل جانب في صورة العذاب، ثم يأتي الموت ليقذف به في جهنم من صنع يده!

وطغيان الإنسان كثيراً ما يكون نتاجاً لغفلته وعدم وعيه بحقيقة ذاته، ولو زالت غفلته هذه ، واسترد وعيه وشعوره لعاد فجأة إنساناً آخر تماماً !!

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ ارْضَىٰ وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ۝١٨١﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَٰبِقَةٌ
 الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝١٨٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ
 الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَحْرُ الْعَمِلِينَ ۝١٨٣﴾ الَّذِينَ
 صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝١٨٤﴾ وَكَأَيِّن مِّن ذَٰبِقَةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٨٥﴾

لنُبَوِّئَنَّهُمْ: لننزلنهم على وجه الإقامة.

غُرَفًا: منازل رفيعة عالية.

وَكَأَيِّن مِّن ذَٰبِقَةٍ: كثير من الدواب.

إن الهجرة هي ، من إحدى النواحي ، علم على تغيير منهج العمل .. وهذا التغيير يتمثل حيناً في تغيير مكان العمل ، كالانتقال من مكة إلى المدينة مثلاً ، ويتمثل حيناً آخر في تغيير ميدان العمل ، كالانتقال من ميدان الحرب إلى ميدان الدعوة، عن طريق صلح

الحديبية مثلاً .

وقد نزلت هذه الآيات تقول لضعفاء أهل الإيمان المقيمين بمكة: إنه لو كان أهل مكة يتناولونكم بصنوف الأذى والإساءة ، فلتغادروا إذن أرض مكة إلى أية بقعة أخرى من بقاع أرض الله الواسعة .. ولتعبدوا ربكم هناك .. ومن هذا نعلم أن معنى الصبر والتوكل هنا هو الثبات على العبادة ، دون الإصرار على مجابهة العدو .. إذ لو كان المقصود هو المجابهة لذاتها مهما كانت الظروف ، لأمر هؤلاء المستضعفين من أهل الإيمان أن يستميتوا في قتال المعارضين بلا هوادة ، ولا يفكروا في الخروج من هناك على أية حال !!

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ١٠٠ : اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٠١ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٠٢

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ: فكيف يصرفون عن توحيده.

وَيَقْدِرُ لَهُ: يضيقه على من يشاء لحكمة.

إن خلق السماء والأرض واقعة عظيمة لدرجة أنه لن يتمكن من إنجازها إلا الله الواحد القهار القادر المطلق .. وهكذا فإن دوران الشمس والقمر ، وهطول الأمطار ، وخروج الشجر والنبات من الأرض ، كل ذلك وقائع أعظم من أن يقوم بإيجادها أحد غير الله - سبحانه وتعالى !!

وليس هناك حتى من بين الذين يارسون بعض أنواع الشرك ، من يعتقد عن إلهه المزعوم أنه قام بإيجاد هذه الوقائع العظيمة .. وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الناس

يعبدون أشياء أو أولياء من الأحياء أو الأموات رجاء أنهم سيلقون البركة في أرزاقهم .. ولكن لما كانت كل القدرات والاختيارات العليا بيد الله وحده ، فمن هناك غيره تعالى يقدر على التدخل أو التصرف في تقسيم الرزق للعباد!

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

هُوَ وَلَعِبٌ: لذائذ متصرمة ، وعبث باطل .

لَهِيَ الْحَيَوَانُ: هي دار الحياة الدائمة والخالدة .

الدِّينَ: العبادة والطاعة .

السبب الأصلي في ضلال الإنسان يرجع إلى أنه يستغرق في مباحج الدنيا ومسائلها إلى حد لا يستطيع معه أن يفكر متحرراً من أسرارها ، مترفعاً عن مغرياتهما ، فلكي تدرك الحقيقة لابد من أن تسمو بنفسك فوق الظاهر .. وبما أن أكثر الناس يعجزون عن السمو بأنفسهم فوق الظاهر ، فإنهم لا يحالفهم التوفيق إلى إدراك الحقيقة كذلك .

ومن حينٍ إلى حينٍ يمر الإنسان في هذه الدنيا بتجارب شتى تذكره بمقدار عجزه وضعفه .. فعندها تتلاشى كل أفكاره المصطنعة عن نفسه .. ويستيقظ فيه "إنسان" الفطرة الحقة .. ولكن حين يعتدل الجو ويستقيم أمره ، يعود سيرته الأولى من الغفلة والطغيان .. ومن تلك التجارب الدقيقة تجربة السفر التي أشارت إليها الآية الكريمة .

ينبغي على المرء أن يضع في اعتباره دائماً أن فرصة الحرية والانطلاق هذه إنما هي

متاحة لمدة الحياة الدنيا القصيرة الأجل وحدها ، وأنه سيدخل بعد الموت إلى عالم جديد تماماً، حيث تواجهه مشاكل وقضايا أخرى لم يكن له بها عهد !.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ١٧٠ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ ۝ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٧١ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ: يستلبون قتلا وأسرا.

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ: مكان يثوون فيه ويقيمون.

إن الحرم المكي نعمة من الله عجيبة .. لقد فرض الله له هيبة على النفوس، لدرجة أنه يذهل هناك حتى الظالمون والطغاة عن ظلمهم وطغيانهم .. وقد كانت قدسية الحرم هذه آية من آيات قدرة الله .. وكان مقتضاها أن تخضع قلوب الناس ورقابهم لله رب العالمين وحده .. غير أن عبدة الباطل لم يلبثوا أن صرفوا اتجاه مشاعر العبودية لدى الناس إلى غير الله بإسباغ أوصاف الله عليه كذباً وبهتاناً .. ثم ازداد هؤلاء ظلماً على ظلم إذ نصح لهم رسول الله بأن ينبذوا تقديس هذه الآلهة المزعومة ، ويخضعوا أمام الله الواحد الأحد ، فناصبوه العداوة وتناولوه بالأذى .

إن اتباع الحق في بيئة تسودها عبادة الباطل ضرب من المجاهدة العنيفة .. والذي يتصدى لها يُنتزع منه كل ما عنده ، حيث تنقلب راحته وسكينته إلى قلق واضطراب لا ينتهي .. ولكن يكمن في هذا الحرمان ذاته سر فوزٍ عظيم .. ألا وهو المعرفة والبصيرة .. فلئن كان أمثال هؤلاء قد سُدَّت في وجوههم أبواب الناس ، فإن أبواب الله تنفتح لهم على مصاريعها ، فيأخذون ينالون من الله خيراً مما فقدوه في الدنيا .. وإنهم

بقدر ما يبتعدون عن أسباب الراحة المادية ، يقتربون من الكيفيات الربانية .. وإذ تكون الأشياء الظاهرية قد غابت عن أنظارهم ، فإن الأشياء المعنوية تتجلى لعيونهم ، وتبدأ تنكشف عليهم أسرار دقيقة لا يدري عنها العظماء والأغنياء وأرباب الجاه والسلطان الدنيوي شيئاً !